



هذا مقال تاريخي كاشف لجذور الواقع يتحدث عن فترة عصيبة في تاريخ سوريا الحديث، فترة وقع فيها الانقلاب العسكري الذي قاده ضباط من الناصريين والبعثيين في 8 آذار عام 1963م، وخطورة هذا الانقلاب –ولذلك نتحدث عنهاليوم– أنه هو الذي أتى بالبعثيين إلى الحكم ومن ثم هو الذي أتى بحافظ الأسد والحكم الطائفي الذي أفسد الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية عدا عن محاربته للدين ولعلماء الإسلام، وليس هذا محل تفصيل لوضع سوريا في عهد هذا الحكم، ولكن نريد أن نعلم ما الذي جرى حتى وقع انقلاب 8 آذار ووّقعت هذه المصيبة على الشعب السوري، وأنا أعلم أن بعض الناس سيقولون أنت ترجعنا إلى الماضي بينما يجب أن نعيش الحاضر، وهذا غلط بين لأنه كما يقال: إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي، وإذا كان ذكر التاريخ لا يستفاد منه فلماذا ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين وما جرى لهم مع أقوامهم، ولنبدأ القصة من أولها.

في عام 1958م تمت الوحدة الكاملة بين سوريا ومصر، وتنازل الرئيس السوري شكري القوتلي للرئيس جمال عبد الناصر وأصبح الأخير هو رئيس هذه الوحدة، لم تدرس خطوات هذه الوحدة بشكل متأن، وحصلت أخطاء كثيرة لامجال لذكرها في هذه العجلة، وهذا أحد أسباب وقوع حادثة الانفصال عن مصر ورجعت سوريا إلى عهدها السابق، وقعت حادثة الانفصال بالإنقلاـب العسكري الذي قاده العقيد عبد الكريم النحلاوي في 28 أيلول 1961م.

بعد وحدة دامت ثلاث سنوات (1958-1961) وقد سميت هذه الفترة ما بين 1961-1963م أي ما قبل انقلاب (8) آذار

1963 بفترة الانفصال، وقد تميزت فيها الحياة السياسية بالحرية وعودة النشاط الإسلامي إلى عهده الأول في عهد الوحدة من العمل الحزبي وكان الحركة الإسلامية اعتبرت نفسها حزباً فأوقفت نشاطها، الأجواء في هذه الفترة (الانفصال) كانت مهيئة للإصلاح بوجود الحرية وأظن أنها كانت فرصة لم تستثمر كما يجب.

هذا من ناحية الدعوة والعمل الإسلامي، أما من الناحية السياسية فإنه مع الأسف رجعت سوريا إلى الحالة التقليدية، الشخصيات السياسية نفسها، الأحزاب نفسها، المناكفة السياسية والعصبية الحزبية، الحزب الوطني وحزب الشعب كأحزاب تقليدية مع وجود حزب البعث المؤدي وهو قوة موجودة في الساحة السياسية ولهم وجود عسكري واضح خاصة جناح أكرم الحوراني، كما رجعت العصبية المدينية بين حلب ودمشق، وهذا ما أدى إلى ضعف الحكومات (البرجوازية) التي يقودها أمثال نظام القدسي وخالد العظم، والأنانيات التي تعودت عليها الأحزاب، وخضوع بعض الشخصيات السياسية لتجهات كبار التجار الرأسماليين، كل هذا جعل من سوريا بلداً ضعيفاً أمام المؤامرات الخارجية والداخلية، وسوريا بلد لا يراد له الاستقرار لما يتمتع به من حيوية ونشاط، وإذا استمر طويلاً يعيش في أجواء الحرية فربما يؤدي هذا لمجيء أناس يجعلون من سوريا بلداً مستقلاً عن تدخلات الغرب أو الشرق، وبجعلونه بلداً قوياً من الناحية الاقتصادية.

لم تسرح حكومات هذه الفترة (الانفصال) الضباط المناوئين لها أو المناوئين لتوجهها أو المنغمسين في الحزبية والطائفية، ولم تتجروا على خطوة كهذه حتى تأمن شر الانقلابات العسكرية، وبقي الضباط البعثيون والناصريون والطائفيون في أماكنهم.

حاول الناصريون العودة إلى الوحدة بالقوة فتمرد بعض الضباط في حلب ولكن حركتهم فشلت، واستغل البعثيون والناصريون هذا الحدث وبدأ التهويل أن سوريا على وشك التقسيم بين حلب دمشق أو الشمال والجنوب مما أدى إلى عقد مؤتمر حمص لتسوية الأمور وكان من قراراته أن يخرج من سوريا أصحاب انقلاب أيلول الذي أنهى عهد الوحدة، وخرج عبد الكريم النحلاوي من سوريا، وكان هذا خطأ جسيماً، وكان هذا بداية التراجع، كيف يقبل الذين قاموا بانقلاب على عهد عبد الناصر أن يخرجوا من بلدتهم ويتركوا الأمور وهي في غاية الغموض حول المستقبل.

كان العقيد مطيع السمان يبحث الرئيس القدسي على عزل عبد الكريم زهر الدين عن قيادة الجيش ووزارة الدفاع فلم يجرأ على ذلك وعندما اقتنع وأراد أن يعزله كان قد فات الأوان ويقول خالد العظم: ولم يبق هذا القرار إلا في مخيلةه لبعض ساعات، وبسبب هذا الضعف والتردد بدأ العد التنازلي وبدأت السماء تتبدل بسحب سوداء، كان ثمة إحساس بأن شيئاً يدبر ويخطط له وأنه سيقع، والحكومة كأنها تنتظر حتفها ولم تقم بأي حركة، وكنا نسمع ونحن طلاب نهم بالأمور السياسية أن هناك حركة من بعض الضباط الوطنيين الذين يتذوفون من وقوع البلد بأيدي البعثيين، وأن هذه الحركة بقيادة ضابط اسمه صديقي العطار، وأن هذه المجموعة أحسوا بما يدبر في الخفاء فقرروا قطع الطريق على البعثيين والناصريين، ولذلك اتصلوا بالأستاذ عصام العطار ليسألوه المشورة والدعم، ولكن الأستاذ عصام رفض هذه الفكرة لأنها لا يؤيد الانقلابات العسكرية والإخوان غير مستعدين لهذه الأمور الآن، أما رئيس الجمهورية نظام القدسي فقد أحس بما يدور بين صديقي العطار وزملائه فطلب منهم ألا يقوموا بأي عمل

هكذا كنا نسمع يومها، وبقيت هذه القضية تؤرقني وأحب أن أسمع الرواية الصحيحة، إلى أن جاءت الفرصة المواتية عندما كنت في زيارة لأمريكا والتقيت في منزل الأستاذ نزار البرازي في مدينة آن آربر بالعقيد عبد الكريم النحلاوي قائد الانقلاب الذي أنهى عهد الوحدة (كان انقلاباً دمشقياً فكل الضباط الذين كانوا معه من دمشق) وبعد السلام والدردشة عن سوريا سألت النحلاوي عن حركة صديقي العطار فقال: هذا ضابط أساء كثيراً إلى سوريا فقد كنا متفقين على إزاحة عبد الكريم

زهر الدين (1) وكان العطار في اللواء 72 في قطنا، وبعد الاتفاق على اليوم المحدد ذهب في اليوم السابق على الميعاد وأبلغ زهر الدين بما يدبر وأنه هو ليس داخلًا في الحركة، وتابع النحلاوي: وفي اجتماع في القصر الجمهوري برئاسة القدسي قال لي زهر الدين: أرجو أن تهدأ الشباب في قطنا، قلت له: أنا الآن لست عسكريًا وأنت لا تستحق هذا المنصب، وهنا اعتذر النحلاوي عن خطئه وخطأ زملائه حين أتوا بزهر الدين إلى رئاسة الأركان، وأنه يشعر بالندم على الثقة بالضباط الطائفين، فقلت له: كيف تكون القوة بأيديكم ثم تتركونها؟ قال: لم يكن في النية الانفصال عن الوحدة، بل كان الهدف إصلاح الأوضاع ولكن عبد الناصر رفض أي محاولة للإصلاح فتم الانفصال، وكذلك كنا نريد إعادة الديمقراطية إلى سوريا ويتبع العسكري عن السياسة، وببدأنا البحث عن رئيس للجمهورية، فطلبنا من رشدي الكيخيا (2) فلم يقبل، فعرضنا الأمر على عبد القادر الأسود (3) فأعتذر، ثم استقر الرأي على نظام القدسي وطلبنا منه أن يكلف سعيد الغزي بتشكيل الوزارة، استدعاء القدسي وسمى له أسماء الوزراء الذين يريدهم فلم يقبل الغزي واعتذر، فكلف معروف الدوالبي، وشكلت الوزارة من شخصيات لا تريدها، كنا نريد وزارة من وجوه جديدة ومن الشباب خاصة. قلت له: كأنك تقول أنكم خدعتم من قبل القدسي والدوالبي، قال: نعم السياسيون خربوا كل شيء.

هذه رواية النحلاوي عن حركة صدقي العطار ولماذا قاموا بانقلاب 28 أيلول 1961 (4) وقد سألت الأستاذ عصام العطار عن هذا الموضوع فقال: أنا طلبت من صدقي أن يجمع حوله شباباً من الكلية العسكرية يكونون معه ولم نطلب منه أن يقوم بانقلاب عسكري، وأضاف الأستاذ عصام: كان عند صدقي تحركات فطلب مني نظام القدسي أن أتدخل ولم أتدخل ولم أطلب من صدقي شيئاً.

وبتاريخ 5-9-2004 التقيت في عمان الأستاذ عدنان سعد الدين (رحمه الله) وانجر الحديث عن سوريا والحركات الإسلامية فسألته عن صدقي العطار، قال: "صدقي كان يريد غطاء سياسياً لعمل يقوم به ولكن عندما لم يجد الغطاء استسلم وفشل" هذا رأي الأستاذ عدنان والله أعلم.

وبعد أن قرأت مذكرات العقيد مطیع السمان وقد كان قائد قوى الأمن الداخلي في هذه الفترة تأكّد لي أن حركة ضباط قطنا صحيحة ولم يذكر اسم صدقي العطار ولكن قال: "طلب مني الرئيس القدسي أن أذهب إلى معسكرات قطنا وأخبره بما يجري هناك، وقد شاهدت رتلاً من الدبابات والآليات جاهز للحركة وقال لي ضباط هذا المعسكر: حالة الجيش لا تطاق في ظل القيادة الحالية، وقد أبعد الضباط الشرفاء ونطالب بعودتهم، ويتبع العقيد السمان: واتفق الرأي على معاقبة ضباط قطنا هؤلاء وكلهم من دمشق ومن صغار الرتب، وكان هذا القرار من أكبر الأخطاء، وخلت الساحة أمام غبرهم الذين فعلوا فعلتهم"

طبعاً يقصد العقيد السمان انقلاب (8) آذار وكلامه يؤكّد لي مرة ثانية أن ما كنا نسمعه من أن هؤلاء الضباط كانوا على خوف وترقب من أن يسبّهم البعثيون والناصريون ويقومون بانقلاب ويستلمون البلد خاصة والحكومة ضعيفة ورئيسها خالد العظم الذي قال لمطیع السمان: إذا وقع انقلاب أخبرني فوراً لأذهب إلى السفارة التشيكية (السفارة قريبة من منزل العظم)!!

في هذه الأجزاء المتراكمة الخائفة كان من السهل أن يتقدّم أمثال زياد الحريري وراشد قطيني ولوبي الآتاسي وغيرهم من الناصريين والبعثيين ويقوموا بانقلاب (8) آذار على الحكومة الضعيفة التي تمارس الديمقراطية الرخوة، وقد سرق البعثيون هذا الانقلاب وأبعدوا الناصريين الذين يتمتعون بسذاجة لا يحسدون عليها، وكلف صلاح البيطار بتشكيل الوزارة لأنّه ممن عارض الانفصال عن مصر، واستدعي البيطار الضابط البعثي أمين الحافظ الذي كان ملحقاً عسكرياً بالسفارة السورية في

الأرجنتين ليكون وزيرًا للداخلية ثم وبسرعة فائقة صار رئيساً للجمورية واستخدمه الضباط العلويون كواجهة، وسرق هؤلاء الضباط الانقلاب من البعثيين عام 1966، وأبعد قادة البعث عن سوريا فذهبوا إلى العراق ووافت سوريا وشعبها العربي المسلم تحت الحكم الطائفي الحاقد على العربية والإسلام.

أحداث خطيرة وقعت بعد هذا الانقلاب عاشت سوريا عشرات السنين والحكم الطائفي يمعن في تخريب البلد ثقافياً وأخلاقياً واقتصادياً حارب الدين واضطهد العلماء والدعاة وقضى على خيرة شباب سوريا في أحداث 1979-1982 (وما يجري الآن بعد ثورة 2011 له حديث آخر)

ماذا نستفيد نحن الآن وفي ظروفنا الحالية حتى لا يكون حديثنا من باب الترف الفكري أو من باب اجترار الماضي والتأسف.

إن من أكبر أسباب هذه الكارثة التي حلت بالشعب السوري هو هذه الغفلة عن حكم العسكر فكيف إذا كان هذا العسكر من طائفة معينة تعتقد أن لها ثأر مع أكثريّة الشعب فهي تمعن في إذلاله وإضعافه وتصبح سوريا كلها بقرة حلوب لهؤلاء الضباط حول حافظ الأسد.

ومن الأسباب هذا التخلّي عن الهوية وهي الإسلام إرضاء لبعض الطوائف أو بحجة الوطنية الجامعة لكل المذاهب والعقائد، وحتى هذه الوطنية فشلت أمام الحقد الطائفي، كان الشعار الذي رفع بعد سقوط الدولة العثمانية ودخول بلاد الشام تحت مظلة اتفاقية سايكس-بيكو هو: الدين لله والوطن للجميع، وهذا يعني إبعاد الدين عن الواقع، وكيف يكون الوطن للجميع الذين يهدمونه ويجعلونه في مؤخرة الأمم من جميع النواحي.

ومن الأسباب هذه الليبرالية والديمقراطية الرخوة التي لا تستطيع أن تتخذ قراراً، ولا عندها رؤية حقيقة لواقع سوريا وموقعها، هذه المناكفات السياسية التي لا تنتهي بين الأحزاب أُنانية دون النظر إلى المصلحة العامة، وأظن أن هذه الفترة من تاريخ سوريا وإن كانت قصيرة ولكن لم تستمر كما يجب دعوياً وسياسياً وفي مناخ الحرية الذي كان، كوارث حلت بالشعب السوري، ألا يستحق ذلك أن نعلم من الذي كان سبباً مباشراً أو غير مباشر لهذه الكوارث؟ هل نستفيد نحن الآن مما وقع سابقاً؟

هناك فرص تأتي وإذا لم تهبل قد تذهب ولا تعود، وحصل هذا في الثورة، هل نخجل أن نظهر مبادئنا بسبب من هو غير مقنع بهذه المبادئ وهو موجود في الثورة.

لماذا لا يقال له ولأمثاله العدل سيشمل الجميع وفي كل الحالات، هل ستختسر الأكثريّة إرضاء لأناس من الأقلية، أمور كثيرة نستفيد منها إذا قمنا بمراجعة لتاريخنا الحديث وحتى لا تتكرر المأساة

لقد تعجبت سوريا من الأحزاب التقليدية ومن هذه الأحزاب التي تختلف عقيدة أكثريّة الشعب مثل حزب البعث أو القومي السوري أو من يسمون أنفسهم (ناصريون) كانت تجربة مرة أن يتحكم الأقلية بالأكثرية، وأن يظهر على الساحة السياسية من هو بعيد جداً عن هوية الأمة وثقافتها، ولعل هذه الثورة المباركة اليوم التي بدأت قبل خمس سنوات تمتص الصفوف وتعيد الحق إلى نصابه وتعيد الحق إلى أهله.

- 2 رئيس حزب الشعب ومن رجالاته ناظم القدسي ومعروف الدوالبي
- 3 رئيس المحكمة العليا في سوريا وهو من مدينة حلب
- 4 في مقابلة للنحلاوي مع قناة الجزيرة قال: إن ضباط اللواء (70) اجتمعوا به ليقودهم لانقلاب آخر يصحون به الأوضاع فرفض وقال إن سوريا لا تحتمل هذا

المسلم

المصادر: